

مقدمة

التقيت الدكتور سليمان "عشراتي" أكثر من مرة، وسمعتة متكلمًا، واستمعت بكتاباته عن "النورسي" رحمه الله تعالى، وقد دهمني أسلوبه الشيق في الكتابة، وقدرته المذهلة على الغوص في الشخصيات التي يكتب عنها. وأستطيع أن أقدر مطمئنًا -من خلال ما قرأت له- أنه يمتلك روحًا فنيًا مرهفًا، ونزوعًا تشكيليًا. فكتاباته تشكيلات في لوحات فكرية، أو فكرية في لوحات تشكيلية. وهو لَمَّاح شديد الملح، دقيق النظر، واسع الاستيعاب ثري اللغة، خصب الثقافة، قوي العارضة، الفكر عنده بناء وتشيد، والأفكار صروح، والمفكرون معماريون، والزمان والمكان مواد بناء. والدكتور "عشراتي" يلج عالم "فتح الله" الفكري والروحي مستحضراً بالتأكيد مفاهيمه المعمارية في التعامل مع فكر الرجل، فيكثر من الإشارة إلى البيئة التي نشأ فيها "كولن" وعاش في كنفها، وهي بيئة ثرية بصروحها المعمارية التي شيدها العثمانيون من حبات قلوبهم وأرواحهم، وسقوها من رحيق فنونهم ومعارفهم وجماليات وجدانهم مما كان لها أثر كبير على تكوينات فكره وتشكيل وجدانه، وإثراء خياله، فكل كلمة خطها قلم "كولن" ما هي إلا لبنة من لبنات الصرح المعماري لفكره السامق. وفي صدد ذلك يقول عشراتي "لقد قامت فلسفة الأستاذ "كولن" على الإيمان بأن عمل المفكر عمل بنائي بالأساس"^(١). ويقول كذلك "إن الإيمان العميق

(١) انظر: صفحة ص: ٤٩ من هذا الكتاب.

يُمْكِنُ المَادَّةَ "الجسد" من أن تتقمص الروح ويمكِّن الروح "الفكرة" من أن تتقمص المادة، وبذلك تستحيل الفكرة يدًا تبني، وظاهرًا ينقل، وجارفة تحفر، وجموعًا تنجز، وهيئات تتابع وتمون. هذا بعض ما تمثل به الأستاذ "كولن" دور رافعة القرآن في تحقيق الفرد الفاعل، والمجتمع الناهض.^(٧)

فالحضارة أولها فكر، وآخرها علم، وما بينهما كفاح وإرادة وعزم.

فمن خصائص فكر "كولن" كما يرى "عشراتي" قابليته الفذة على التحول السريع من طاقة فكرية مشعة في الذهن إلى صروح كتلوية ومؤسسية فوق أرض الواقع، ومن أجل هذه الخصيصة المتفردة صار فكره معتمدًا في عملية التحول الحضاري الذي وضع "كولن" خطوطه العامة في كتابيه القيمين "ونحن نبني حضارتنا" و"ونحن نقيم صرح الروح". فالحضارات في رأي "كولن" إنما تخوض صراعاتها من أجل قضية واحدة هي الرغبة في التأكيد على الذات، وفي الوقت نفسه محاولة مجاهدة تؤديها روح الأمة لتحفظ باستقلاليتها وتفردتها عن الآخرين. وهذه التجليات الحضارية والروحية تعتمد بالأساس على قدرات المسلم على تغيير نفسه وتجديدها وإدراكه أبعاد الفكرة التي تقول بانتماء الإنسان إلى نظام كوني عظيم. ومن هنا يقف "كولن" بالضد من المحاولات المحمومة التي تريد استلاب شخصية المسلم وتذويب استقلاليتها، ومن أجل هذا يقول عشراتي: "لا يزال "كولن" يعلن في كتاباته بأنه يمثل حلقة ضمن سلسلة ذهبية من الأسلاف المباركين انبثوا عبر العهود والمراحل، وعاشوا متفرغين للكدح والتسك والدعوة إلى الله، وإرساء أسس

(٧) انظر: صفحة ص: ٥٥ من هذا الكتاب.

الإحسان وخدمة الأمة"^(٣).

إن صخب الحضارات وضجيجها وارتفاع أصواتها كثيراً ما يعمل على إخفاء الإنسان على نفسه، وجعله غارقاً في يم ما تفرزه هذه الحضارات من توافه ومن قشريات وصدفيات، أما حضارة الإسلام -كما يرى كولن- فهي حضارة تعتمد الإنسان أساً مهماً من أسس وجودها ونفسه هي المقصودة بالأساس للارتقاء بها في مراقي التهذيب والتقريب من خالق الإنسان وبارئ الوجود.

فالحضارة التي لا توفر لإنسانها وسائل الكفاح الروحي الارتقائي من النسبي إلى المطلق، ومن النهائي إلى اللانهائي، حضارة عرجاء كثيرة التعثر والسقوط، وهذه هي الحضارة التي لا يرغب "كولن" بامتداد سلطانها إلى عالم الإسلام.

ويمضي الدكتور عشارتي في تحليل فكر "كولن" حيث يقول: "ولما كان "كولن" إنساني الرؤية، ذا فلسفة دعوية كونية، فقد أرسى مسطرة منهجه على شعار اليسر والتيسير الذي يراه جوهر العقيدة الإسلامية ومميزها، وطابعها الأصيل الذي إذا ما حادت عنه تعطلت الدعوة، وتأجل موعد تلاقي الأمم مع الدين الذي شاء الله أن يكون دين البشرية قاطبة"^(٤). ولئن كان العالم اليوم غير مهياً لاستيعاب متطلبات الحضارة الروحية العالمية التي يرسم "كولن" معالمها من خلال كتاباته، وهذا قد يصح إلى حد ما عندما نغفل عن طبيعة الإنسان ذي الذكاء المتجدد، وذو القابلية على التجربة والانتقال من طور إلى طور. فإنه إذا ما حاول أن يلتمس شتات

(٣) انظر: صفحة ص: ٧٩ من هذا الكتاب.

(٤) انظر: صفحة ص: ٩٩ من هذا الكتاب.

نفسه، ويوحد ذاته، فإنه سيكون سريع الاستجابة لمتطلبات هذه الحضارة التي تتوافق مع الفطرة التي فطره الله عليها. فـ"كولن" وفي كل كتاباته يراهن على الإنسان، ويراهن على قدراته المذهلة على تغيير نفسه من النقيض إلى النقيض، ويراهن على إرادته اللامحدودة التي تشكل مغزاه الوجودي. فهذه الإرادة قهارة جبارة، تعينه على التغيير والتبديل، وتذليل الصعاب وإزالة العقبات والوصول إلى الغايات.

وتتجلى هذه الإرادة الخارقة في عمل من أهم الأعمال الحضارية الفكرية، وكما يقول "عشراتي": "إن استصدار حراء العربية اللسان في تركيا جاء تنويجاً لمراحل مريرة من النضال والصبر خاضها أبناء الأمة الأجلاء هناك، وبذلوا أعمارهم لأجل كسب النصر في معركة استرداد الهوية الروحية والانتماء الحضاري. لقد أبى التغريبيون إلا أن يجهزوا على الحرف العربي في "تركيا" فجاءت الیقظة التي أثارها "كولن" ليعيد الأمر إلى نصابه، فكان إصدار مجلة "حراء" إشارة معبرة وإعلاناً فصيحاً على أن الفجر أشرق من جديد"^(٥).

والحضارة التي يرى "عشراتي" أن "كولن" يرسم خريطة الطريق للوصول إليها، حضارة لن تتحقق أبداً في أخذ العالم كله في روحها، وفي سعة عقلها، لأنها علوية المصادر، ربانية الإمداد، فقدراتها على الاستيعاب غير محدودة، ورغبتها بالامتداد والتوسع لن تتوقف، وإفساح المجال أمام الذات وتجلياتها وإبداعاتها والتفوق على نفسها مما تشجع عليه وترغب به، وكما سبق للإنسانية أن ائتمنت حضارة الإسلام على نفسها قروناً عديدة فهي كذلك مستعدة اليوم أن تفعل الشيء نفسه عند

(٥) انظر: صفحة ص: ١٣٤ من هذا الكتاب.

قيام هذه الحضارة وبالشروط التعبوية نفسها.

فحضارة الإسلام لا تساوم الإنسان على شراء نفسه، ولا تتودد إليه بتبرير سقطاطه، والإغضاء عن انحذاراته، وتكريس استمرارية ضعفه، وكأن حضارة الغرب تقول له بلسان الحال "لا عليك إن أنت شرعت بالانحذار، لأنك إنما تفعل ذلك استجابة للجانب الحيواني فيك". إنها حضارة متفهمة إلى حد بعيد لجوانب الضعف الغريزي للإنسان، ولم تلتفت إلى جوانب القوى الهائلة التي يمتلكها لاستخدامها في الارتقاء والترقي من حال الضعف الدركي إلى حال القوة الارتقائي كما تفعل حضارة الإسلام. لاجدال في أننا نخطو نحو فهم "القوة" الإنسانية، وإن كانت حتى هذا اليوم خطوات بطيئة إلا أنها في الاتجاه الصحيح. لقد نبهنا "كولن" كما يقول "عشراتي" إلى هذه القوة، وقال إنها موجودة في دواخل الإنسان، لكنها في الأعماق البعيدة من هذه الدواخل. فالإنسان من غير هذه القوى يشعر بحراجه حياته وربما تمنى أن لم يكن موجوداً على الإطلاق، وهذا مما يمرضه ويجعله خائفاً من وجوده نفسه.

فالتفت "كولن" إلى هذه القوة، والإشارة إليها، وحث الإنسان على الذهاب وراءها للكشف عنها واستخراجها إلى "عالم الشهود" واستخدامها في بناء قواه النفسية وقواه الحضارية، أمر في غاية الأهمية، لأنه عمل من صميم ما يحث عليه الدين ويرغب به الإسلام. فالإسلام -ديناً وحضارة- يتخذ من هذه القوى قاعدة يبني عليها صروحه الفكرية والحضارية والأخلاقية.

أديب إبراهيم الدباغ